

الصورة واليهودي في رواية الميلودي شغموم الجديدة (المرأة والصبي)

نبيل سليمان

كثيرون شاهدوا أو علقوا نسخة من اللوحة المجهولة الشهيرة التي يملؤها رجل عجوز قبالة الزجاجاة، والتي ستملاً رواية الميلودي شغموم (الرجل والصبي) بلعبة بالغة السذاجة والمكر والعمق الفلسفي في آن.

الرواية والصورة:

وببدأ ذلك كما سينتهي بمقتطف من رسالة ماريز للفنان التشكيلي داوود حمدي حول اللوحة، بينما يبدأ داوود بدوره الرواية بسؤال صديقه حميد المشتغل بتاريخ الفن وعلاقاته بتحويلات المجتمع، عن اختفاء رجل اللوحة، فيرد حميد: «هذا الرجل لا وجود له، إنه مجرد صورة، وصورته هي كل ما نعرف عنه». وقد كان السؤال يعني اختفاء اللوحة من مجلس الرجلين، ولذلك تابع حميد أن الصورة هي التي اختفت، وليس الرجل غير الموجود أصلاً لكي يظهر أو يختفي. وهكذا يمضي الحوار الذي سينهض بالرواية على اختلاف الشخصيات والوقائع، إلى ما تستبطن الرواية وما تعلن من الفكر والفلسفة. فحين يسأل داوود صديقه عن سر اختفاء اللوحة / النسخة / الرجل يذكره الجواب باختفاء صور الزعماء والنجوم، وإذ يعقب داوود: «صاحبنا ليس نجماً» يتساءل الصديق عن اختفاء صور من نوع سي دنا علي ورأس الغول، أو يوسف وزليخة، ثم يعلل الاختفاء بتغيير الدنيا ومعها ما يحتاجه الناس من الصور، بعد ما أغرقتهم وسائل الإعلام بخاصة بصور أخرى ليسوا بحاجة إلى أغلبها، والأمربات: «صور تحيا وأخرى تموت مع الوقت والناس، والاستهلاك».

لا تتادي الرواية في ذلك وفيما سيلي بودريار أوفيرليو أو سواهما من فلاسفة عصر الصورة الذي نحيا، بل تتادي العصر نفسه كما يليق

بتسريد الفلسفة في الرواية. وهكذا نمضي إلى لقاء داوود حمدي مع عماد بنشريفة الذي تدعي خالته أنها زوجة عجوز اللوحة / النسخة / الصورة. وبشبه داوود الأمر بما راج من عشق رجال ونساء من كافة الأعمار والأعمال، من خلال الصورة الألكترونية في الانترنت، ويقرن ذلك بما كان من التعلق بالجن والنجوم: إنه «سحر الصور... تتبدل ولا تتغير».

تقصد ماريز داوود ليعينها في العثور على نسخ لوحة العجوز. ويتكفل بالنفقات المعهد الذي أسس في بريطانيا لجمع النسخ بغاية تعريف الناس على ثقافة (التوالد الفني). وهكذا ابتدأت الرحلة الروائية في المدن المغربية بالرباط، فالمحمدية، فالدار البيضاء «التي تاكل تاريخها» حيث يلتقيان بروجي المغربي باللوحة والنوادر، والذي يرى أن النسخ قتلت النموذج، بينما تنقل ماريز عن أستاذها أن النسخ، في أي مجال إبداعي، تنتهي دائماً إلى ته م يش الأصل أو قتله والحلول محله. في مراكش تبدأ أسئلة داوود بالتشكك في أمر المرأة الغربية (ماريز) وجمعها للنسخ. وفي واحدة من تغريعات الرواية تسرد ماريز قصة الرسام الذي أبدع لوحة الرجل العجوز والزجاجة: إنه جان - كلود بواسون الشهير بالاسفنجة. وفي ساحة (الفنا) من مراكش تشتري ماريز من (الطالع) نسخة من اللوحة لا أثر فيها للزجاجة، بينما تتوالد قراءات داوود للوحة: «إما أن تكون الزجاجة امرأة وإما أن تكون نفس الرجل، ذاته»، ثم ترجح قصة بواسون في قراءة داوود أن تكون الزجاجة امرأة: أم الرسام مثلاً أو ذاته الساكنة في الزجاجة. وحين تتفرع الرواية إلى ما يرويه داوود من قصة جده وأبيه، تشبه ماريز القصة بقصة بواسون، وترى أنه إذا صح تأويل داوود للزجاجة في اللوحة كامرأة «فإن عائشة جدك هي الزجاجة بالنسبة لصاحبنا الرسام».

كان داوود يعتقد دوماً أن هناك أصلاً واحداً للوحة أو النحت أو... والباقي نسخ تظل نسخاً مهما اقتربت من الأصل، فلا تساوي شيئاً. ويرأي داوود أيضاً أن (الاستنبات) في المسرح تشوبه للأصل، وقد سمى بعض الفنانين داوود بـ (أفلاطون) لأنه يرفض (المحاكاة) ويضع الأصل في مرتبة أعلى من كل النسخ. وحين عبر داوود عن ذلك في لقاءه مع أصدقاء ماريز، عقب منهم ببيير أن النسخ نوع من

المثاقفة، قد يفيد في فهم العديد من مظاهر التلقي وإعادة الإنتاج في الفن والثقافة بعامة، وفي السياسة أيضاً. لكن داوود يرى أن نظرية (التوالد الثقافي) كنظرية (التوالد الفني) بلا فائدة، والنسخ في السياسة يفضي غالباً إلى فصائح أو مهازل، وقد يكون الأمر كذلك في الشعر أو الرواية.

الصبي أو الوجه الخفي للرجل:

منذ بداية رحلة داوود وماريز نقرأ أن (الصبي) يتشهى المرأة فيزين للرجل الرحلة ويتمنى أن تطول. ويعزم الرجل على أن تطول الرحلة العمر كله، وعلى ألاّ تجد ماريز أية صورة مما تبحث عنه. وحين تعرضت السيارة التي تقل داوود وماريز لحادث يردد الصبي في دخيلة الرجل مخاطباً المرأة: «ذوقى عذاب القبر ومشاهد يوم القيامة»، فقد أمض الصبي ما عدّه إلقاؤها الأوامر على الرجل. وهنا يبدأ تشوش الأخير، فحين ترفض ماريز أن يعرف الدرك أنهما كانا في حافلة الحادث، يتساءل عما إن كانت إرهابية. وحين تسأله عما إن كان يرغب أن تذهب معه إلى البحر، يتنفض هو أو الصبي، ويخاطب نفسه: «اطرد الصبي، أو صالحه، إنه يشوش عليك». وسيحتج الصبي على قول ماريز إن جان - كلود بواسون يمكن أن يكون يهودياً مغربي الأصل، ويلكز الرجل: «يسرقوا بلادك وأنت تتفرج» فينهره داوود. وسوف يتكاثر تدخل الصبي منذ بلوغ الرحلة إلى الصويرة، فالجديدة، حيث ينزل الراحلان في أوتيل عميمي، ويتبين لداوود أن ماريز تعد أطروحة حول بواسون المتصوف بعنوان: (الأصل والنسخ والامتزاج)، وأن بواسون التحق في آخر حياته بالطريقة الصوفية المسماة (الطريقة الصافية)، والتي تضم مؤمنين من شتى الأديان وملحدين، وبينهم عميمي ومارسيل نفسها وبيير وروجي وسواهما ممن صادف داوود من قبل. لكن الصبي يتشكك في أن تكون (الطريقة الصافية) جماعة دولية نافذة، فيخاطبه داوود أخيراً: «إما أن تكبر وإما تفهم متى تلعب ومتى تكون جاداً وإما ترحل إلى غيري». وباختفاء الصبي في نهاية الرواية يبرر السؤال عما إن كان داوود قد فقد الطفولة الكامنة فيه، أو برئ من الازدواجية التي تومئ إليها في شخصيته.

اليهودي:

في الصويرة تجمع ماري ز بصديقيها اليهوديين المغربيين: بيير رجل الأعمال التائب، ومارسيل الأستاذ المتقاعد، فيتشكك الصبي في أن تكون المرأة جاسوسة إسرائيلية، وبقرع داوود الصبي الخائف المتردد: «اسمع، أو ليدي، الله يسترك ويرضى عليك، كفاك ريباً وفزعاً، ارتح قليلاً ودعني، أنا الرجل، الراشد، أتصرف بعقل، من فضلك، مفهوم؟». بيد أن ذلك يفرع الرواية إلى استعادة داوود لعلاقته مع مزال اليهودية، بنت الجيران التي أرضعتها أمه كما أرضعته هو أمها ربيقة، وهو الذي كان يشاع عنه في مراهقته أن جنية تسكنه.

جاءت مزال إلى داوود في المنام تذكره بارتعاشه كلما رآها في مراهقته، وتعلل ذلك: لأنني كنت يهودية، ولأنه في (زمن الغليان) ذاك كان داوود يعتقد أن كل يهودي صهيوني. وكما كان الصبي فسحة - لعبة لعلم النفس في الرواية، هي ذي مزال تخاطب داوود في المنام: «أنا متأكدة أنك كنت تحب التي تراها ك (مزال)، أختك اليهودية المغربية، وتكره، في نفس الوقت، تلك التي ترى فيها الصهيونية، فترتعش، وتضطرب، عندما تراني، صراع عاطفي، ازدواج محض هو الذي يخلق لديك هذا الارتعاش وبوهمك بأنك مجنون أو في الطريق إلى أن تصبح مجذوباً». ويتذكر داوود في المنام وصية أمه بأخوته لمزال من الرضاعة، لكنه يستنكر: «أنا في فمي، في دمي، حليب يهودي، وفيها حليب مسلم؟». وتكمل مزال قصة المنام، فتخبره أنها رحلت إلى فرنسا للدراسة الجامعية، ولا علاقة لها بالصهيونية، وأن بيير خالها، ومارسيل زوج أمها، وأن أمه لم تعترف له بأمر الرضاعة لأنها ماتت وهو صغير، وأن أمها اعترفت لها قبل موتها. وأخيراً تصدعه مزال بالسؤال: «فهل أنت صهيوني لأن فيك بعض الدم اليهودي؟ وهل أنت غير مغربي لأن فيك شيئاً من هذا الدم؟». يسأل داوود ماريز عما إن كانت جاسوسة، فتتجنب. ويعلل السؤال بأنها لم تتعامل مع مسلم في الرحلة حتى الصويرة، لكن الأمر سيتكشف عن جماعة صوفية كما سبق القول. وقد توالدت ذكريات وحكايات داوود في هذا الشطر من الرواية من الطفولة المتعلقة باليهودي، كالشجار بين أم مزال والجارة البربرية، بالأحرى كما يوميء داوود: العبرية والبربرية لغتان تتشاجران. ومثل ذلك ما يرويّه من

حكاية المرأة المغربية المسلمة التي تدعي أنها زوجة الرسام بواسون، حيث يوضح له ببيير أن المرأة ليست زوجة باسون، بل عاشرت رساماً برتغالياً ينسخ اللوحة الأصلية. وفي بيت مارسيل الذي استضاف داوود وماريز في الصورة، يزهو المضيف بتاريخ أسرته الشيعية اليهودية، إذ لم يهاجر أحد منها إلى إسرائيل سوى عمته التي كانت شبيخة (مغنية شعبية)، وعادت خائبة لأن الجمهور لم يفهم لغتها العربية المغربية، لا في إسرائيل ولا في باريس، ولم تغن بعد عودتها.

* * *

إذا كانت اليهودية في الرواية قد فرّعتها، فقد ظلت الوشيخة حية وقوية مع الأصل، أي مع لوحة ونسخ العجوز والزجاجة. وقد ظهرت في نسخة مما اشترت ماريز امرأة بدل العجوز، وزججتان بدل واحدة، كما غدا الرجل العجوز في نسخة أخرى امرأة عجوزاً محجبة، والزجاجة فارغة. وفي نسخة ثالثة ظهر رجلان يشبهان العجوز، لأحدهما عمامة مغربية كثيفة، وللآخر شاشية يهودية، بينما توسطت زججتان الطاولة. وفي البحث عن سر اللوحة يذكر مارسيل دراسة لأحد مؤرخيها تذهب إلى أن الزجاجة موديل لامرأة، كما يشير مارسيل إلى رمز الكأس ورمز الجرة لدى الصوفية. أما تفسيره هو فيذهب إلى أن ليس في الزجاجة إلا الخير أو الشر أو الموت أو فراغ، كأن لا شيء آخر فيها غير ما هو موجود فينا وفي الخارج: القدسي والدنيوي. وبلور مارسيل سر اللوحة بالحياة والموت: هذا معنى النصف نصف: رجل عجوز ميت حياً، وزجاجة فارغة ملأى. لكن داوود حمدي الذي بارحته ماريز واختفى طيفها كما اختفى العجوز والزجاجة والصورة، يرى في ذلك علامة على انتهاء مرحلة، وربما جيل «وقد تكون الحقيقة حقائق، كما يقال، تتبدل مع الوقت وأهل الوقت، وقد لا تعدو هذه النسخ التي ضاع أصلها». وبذا يختم داوود الرواية التي تماهى فيها، وبامتياز، الفلسفي بالفني، بلعبة بالغة السذاجة والمكر والعمق، كالعهد بروايات الميلودي شغموم.

